كيف نقرأ التراث، وبأيّ منهج؟

أ.د.صالح بلعيد

المقدمة

أعجبني الإهداء الذي وضعه الأستاذ حسن حنفي في كتابه: التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم، وهو: "**إلى كلّ من يساهم في صياغة مشروعنا القومي**".فالتراث العربية في أمسّ الحاجة إلى من يحفظه من الذوبان، وإلى من يمنهجه من جديد؛ وإلى البحث في التراث مسؤولية ثقافية وقومية، والتجديد هو الغاية، للمساهمة في تطوير الواقع، وحلّ مشكلاته، وفتح مغاليقه، والقضاء على معوّقاته، لأنّ التراث قائم فينا؛ فهو موجّهنا لسلوك الجماهير في حياتها اليومية، إما بعاطفة التقديس في عصر لا يسلك فيه إلا مدّاح، أو بالارتكاز إلى ماض زاهر تجد فيه الجماهير عزاءها عن واقعها المضني.

وأجد نفسي في هذا المقال أمام مشروع النهضة الذي نادى به الأفذاذ المجدّدون؛ أمثال: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وابن باديس، ورضا حوحو... الذين يدعون إلى تبنّي منهج: انتقد قبل أن تعتقد / لا تقرأ المستقبل بعيون الماضي/انظر إلى الحاضر

بعيون الحاضر... ويرفضون قياس الحاضر على الغائب، كما يحاولون الإجابة عن أسئلة العصر، من مثل: كيف نتعامل مع تراثنا؟ كيف نحقّق تراثنا؟ كيف نعيد بناء تراثنا؟ ماهو المنهج الأنسب لقراءة التراث وتبليغه؟ وفي هذه النُقاط سطّرت معالم المقالة؛ لتكون محدّداتها كما يلي:

1 . **نحن والتراث:**

2. كيف نقرأ التراث؟

3. بأي منهج ندرُس /ندرِّس التراث؟

نحـن والتراث

لاشكّ أنّ الحديث عن التراث يتطلّب من أيّ باحث التعريف به، وعلاقة التراث بأمته، والدور الكبير الذي قدّمه التراث لحضارتنا العربية الإسلامية، وامتدادات هذا التراث وأبعاده الجمالية والإبداعية، وكيف لم يستطع المعاصرون تجاوزها في بعض العلوم ... وهذه من مستلزمات المنهجية العلمية التي يتطلبّها البحث الأكاديمي؛ الذي لا ينكر التعرّض لما للتراث من فضائل، وما له من هنات ونقائص، وغرضي في هذا العمل ليس التعرّض للهنات والنقائص، بقدر ما أمرّ على الإجراءات العلمية الجبّارة التي قدّمها تراثنا، وحرّي بنا أن نمجّدها، فنحن مقصرون في حقّه، والعيب فينا وليس في تراثنا ومع ما يمكن أن يذكر في هذا المجال سوف أمرّ على بعض الخطوات التي يستدعيها الموضوع بصورة مختصرة:

1.1معنى التراث: إنّ أصل كلمة (**تُراث**) من وُراث بالواو، فالتاء ليست أصلية في الكلمة وإنّما أُبدلت بالواو، من مثل: تُهمة أصلها وَهْمَة فهو من فعل: وَرِث، يرِث، ويقال: ورِث فلاناً ويتعدّى لمفعول واحد، ولمفعولين: ورِثتُ مالاً، وورِثّه مالَه ومعنى التراث في اللغة: كلّ ما يخلفه الرجل لوثته من ماديات أو معنويات، وهو الميراث، قال ابن فارس "وهو أن يكون الشيء للقوم ثمّ يصير إلى الآخرين بنسب أو بسبب، قال الشاعر:

وَرِثناها عن آباء صدق ونورثها إذا متنا بنينا"[1]

يختلف المعنى الاصطلاحي من مجال لآخر، فنجد من يطلقه على الكتب المخطوطة، وبعضهم على الكتب القديمة التي أُلفت قبل العصر الحديث؛ مخطوطة كانت أو مطبوعة، ويطلق ليشمل المدوّن والمحكي وعلى العموم فكلمة **التراث** تعني: ما تناقلته أجيال الأمة من العلوم والمعارف نظرية أو تطبيقية في مختلف حقول المعرفة، ومختلف مجالات التطبيقية في الحياة العملية، وهذا التعريف يخرج من **مفهومه الوحي والحديث الشريف**؛ باعتبارهما ليسا كسباً اجتهادياً وأما **التراث العربي الإسلامي** هو الذي تكون فيه اللغة العربية أداة التعبير، ويكون المنهج الذي سار عليه هو المنهج الإسلامي وإنّ هذا المصطلح تعرّض لكثير من الآراء، وعرف تطوّراً في الدلالة، وشحن بشحنات متنوّعة تختلف باختلاف الرؤى ولقد وردت كلمة التراث في الشعر العربي القديم وفي النثر بدلالة: كلّ ما وصل إلينا من الماضي داخل الحضارة السائدة، فهو إذن قضية موروث وقد نطق الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم بذلك قائلاً:

---

[1]- معجم مقاييس اللغة، مادة: ورِث

ورثت مهلهلاً والخير منه زهيراً نعم الذخر الذاخرينا

وعتاباً وكلثوماً جميعاً بهم نلنا تراث الأكرمينا

وقال أبو نواس:

تراث أناس تخرّموا توارثها بعد البنين بنون

وقال الجاحظ: "لو ما أودعت لنا الأوائل في كتبها، وخلدت من عجب حكمتها من أنواع سرّها حتى شاهدنا بها ما غاب عنّا، وفتحنا بها كلّ مستغلق كان علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندرك إلا بهم، لقد خسّ حظنا من الحكمة وضعفت سبلنا إلى المعرفة"[2]. وأما الشعر المعاصر فلم يخرج في تعريفه عن جبّة القدامى، فهذا أحمد شوقي يقول:

أثر من محمد وتراث صار للروح ذي الولاء الأمس

بلغ النجم ذروة وتناهى بين ثهلان في الأساس وقدس

ولقد ظهرت كلمة التراث في القرن الماضي في كتابات أحمد أمين، وأوردها الشيخ محمد زاهد الكوثري بلفظ المورث، وجاءت في سلسلة عناوين تصدر في مصر؛ يشرف عليها طه حسين (**سلسلة التراث**) كما تناولها النقاد والفلاسفة وربطوها في الوقت بالمعاصرة، فنجد كلمة (**التراث**) مقرونة بنتاج الحضارة العربية القديمة في جميع ميادين النشاط الإنساني من علم وفكر وأدب وفنّ مأثورات شعبية وآثار وتراث فلكلوري واجتماعي واقتصادي، كما يقسم بعض الباحثين التراث إلى تراث ثقافي وتراث حضاري "فالثقافي

[2]- حياة الحيوان، ج1، ص 85

هو كلّ ما أنتج في سائر العلوم والآداب والفنون الموروثة والمنقولة كتابياً أو شفوياً، وأما التراث الحضاري فيتكوّن، من جميع الموروثات الثقافية والتاريخية، وفي العمران والآثار والأنظمة المختلفة"[3]وفي الوقت الحاضر كلّما نتحدّث عن التراث يتبادر إلى ذهننا مصطلحي الأصالة والمعاصرة، وتتداخل كثير من المصطلحات، لدرجة أنّك لا تستطيع الفريق بينها، ونجد هشام شرابي يفرّق بين مصطلحات متقاربة وهي: **التحديث والحداثة والنزعة الحداثية**، فيقول: "إنّ التحديث وهو سياق التحوّل الاقتصادي والتكنولوجي كما جرى تاريخياً لأول مرة في أوربا يمثّل ظاهرة أوربية فريدة من نوعها، والحداثة هي من الزاوية البنيوية مجموعة من العناصر والعلاقات التي يتألّف منها الكيان الحضاري المتميّز المدعو حديثاً...وأما النزعة الحداثية، من حيث هي وعي الحداثة، فتمثّل رؤية خاصة تنطوي على تغير الذات والعالم[4] وعلى العموم فإنّ المعاصرة مقابل الأصالة سبّبت ردّ فعل قوية بعض العرب مكرهين في البداية ثّم أصبحوا مقلّدين، وبعضهم أصبحوا رافضين، وصاحب هذه العملية ردود فعل مختلفة تأرجحت بين الإعجاب والتقليد، وبين الرفض المعبّر عنه بالسلبية والانسحاب والنكوص والمصادمة والثورة، ومحاربة كلّ ما هو غربي.

1.2 **المستشرقون والتراث العربي الإسلامي**: إنّ الفضل في التنبيه إلى قيمة التراث يعود إلى تلك الأعمال التي بدأ المستشرقون يحقّقونها ويفتحون نصوصها، فتعامل معظمهم مع التراث تعاملاً فكرياً ليس له أدنى قداسة أو احترام، كما حاولوا تناول

---

[3]-محمد بلبشير الحسني: "دور المصطلح في تحديث التراث وتوسيع فضائه"، مجلة معهد الدراسات المصطلحية، المغرب، 2000، جامعة سيد ي محمد بن عبد الله، ظهر المهراز بفاس، عدد (نحو منهجية للتعامل مع التراث الإسلامي)، ص87.

[4]- البنية البطركية: "بحث في المجتمع العربي المعاصر"، بيروت، 1987، دار الطليعة، ص 30.

التراث الإسلامي بنفس المنهج الذي درسوا به التراث المسيحي، فوهبوا أنفسهم لبحث عن الكنوز العلمية، فأفاد الكثير منهم تراثنا، وأفادوا العربية، وعلينا الإقرار بتفوّق بعضهم في دراسة تراثنا الذي بقي منسياً، كما لا يمكن الحديث عن التراث العربية الإسلامي دون استحضار جهودهم في مجال التفسير والتأويل، ولا تهمنا دوافعهم، بقدر ما يهمنا تصدّيهم بالدراسة الجادة لهذا التراث في كثير من الأحيان، والتنبيه إلى جواهره، كما لا يمكن نكران فضلهم في التدريس الجامعي، وجمع المخطوطات وفهرستها، والعمل على الحقيق والنشر والترجمة من العربية، ولا نغفل تلك المناهج المعاصرة التي وضعوا فيها التراث للدراسة، فأبرزوا منهجية علمية كانت عمدة المحقّقين العرب بعد ذلك، والمتمثّلة في:

- تحديد مفهوم النصّ التراثي، وموقعه وأهميته.
- واقع تدريس النصّ التراثي، ومنهجية تدريس النصّ التراثي.
- مبدأ الأخذ بشمولية المنهج (المعرفة وسيلة لا غاية).
- وجوب مراعاة طبيعة النصّ: توثيق النصّ، لغة النصّ، الموضوعية، التمييز بين الأصيل والدخيل بين الإبداع والإتباع، حسن التعامل مع الاختلاف.

وهذا الاهتمام من قبل المستشرقين أدّى بهم إلى التعامل مع تراثنا، تحقيقاً ونشراً وخدمة وإحياءً، وتمثّل ذلك في الفهرسة الكبيرة للمخطوطات العربية الموجودة في مكتبات العالم، وإقامة مكانز Thesaurus، وقوائم بيليوغرافية، وموسوعات في مصطلحات التراث.

1. 3 **موقف المعاصرين من التراث:** نعلم أنّ للتراث العربية الإسلامي خصائص تميّزه عن غيره، فله جوانب في الفكر والنصّ والعرفان، وفيه شتّى العلوم، وهو واسع على مدار سبعة عشر قرناً متنوع الدرجات، عالمي يشمل بعض المكتوب في اللغات الأجنبية، وله لغة تميزه ومصطلحات تخصّه. ومن هنا جاءت الدعوة إلى الاهتمام به إثر الهزّات العنيفة التي أحدثها القرن الاستعماري المصحوب بالغزو الفكري في العالم الإسلامية فحدث صراع بين الثقافة الغربية والإسلامية، ونشأت تيارات معادية للتراث، ذائبة في التيار الغربي، وبعضها ممتنع الاحتكاك بالحضارة الغربية ومعادية له والبعض وسط تأخذ بالطرفين ويمكننا تصنيف هذه الفئات كما يلي:

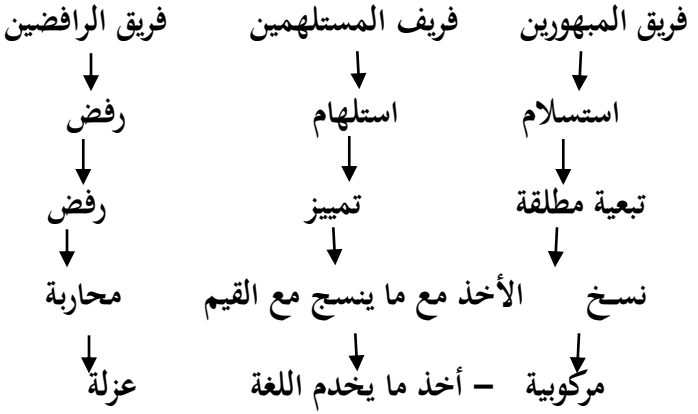

- **الحوار**
- **حضارة عالمية**
- **الأمة الوسطى**

وهذه التيارات الثلاثة متعارضة، فبعضها قصّرت التراث على العلوم الدينية واللغوية، وأغفلت باقي العلوم الأخرى، وبعضها رأت أنّ وظيفة الخلاص من التخلّف هو استلهام الثقافة الغربية، ولغته تكون مرجعية لا مناص منها، لاستدراك الركب العالمي واستشراف المستقبل، والبعض يمسك بالعصى من وسطها لا يرفض التراث ولا يعادي المعاصرة، وبقي الكيل متأرجحاً !

1..**4 زمن التراث**:ركزت أكثر الأبحاث بأنّ التراث ما يصحّ أن يوصف بأنّ ما تركه السابق للاحق وتحديد المدة التي يوصف فيها إنتاج ما بأنّه من التراث، وهو كل ما أنتج قبل عصر النهضة الحديثة أي قبل القرن الثالث عشر الميلادي، وهناك من الدراسات تحّد مائة سنة (قرن) يدخل أيّ إنتاج في التراث، ولهذا نجد المقابلات الضدية: التراث والمعاصرة/التراث والحداثة /التراث والتجديد وفي الحقيقة لا يجب أن نسمع هذا التضاد، بقدر ما يكون التكامل، فالتراث لا يكتسب قيمته إلا بقدرته على ترشيد التجديد والمعاصرة والحداثة.

5.1 هل الوحي والسنّة من التراث؟ لقد وردت كلمة (**التراث**) في صوّرها الاشتقاقية في القرآن الكريم كما يلي: ورِث/ورِثة /ورِثوا/ترثوا/نرثه/يرث/يرثني/يرثها (2)/يرثون (2)/أورثكم/أورثنا(4)/أورثناها

(2)/نورث/يورثها/أورثتموها(2)/اورثوا/يورث/الوارث/الوراثون(2)/الوارثين(3)/ورثه/الترا ث/ميراث (2) ويصبح عدد ذكر كلمة ورث في اشتقاقاتها 35 مرة، ويكون التركيز على كلمة التراث المذكورة في قوله تعالي:﴿ **وتأكلون التراث أكلاً لمأً﴾** (سور الفجر، الآية: 89) والميراث المذكورة في قوله تعالي: ﴿ **ولله ميراث السموات والأرض والله**

بما تعملون خبير﴾ ، (سور آل عمران، الآية: 3) ﴿**وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله ميراث السموات والأرض**﴾، (سور الحديد، الآية: 58) وما يمكن أن يستنتج من خلال آيات الميراث، أنّها تتحدث في عمومها عن تنظيم الصورة منقولة أو غير منقولة من شخص إلى آخر، يذكرهم المتوفّى في وصيته، أ, توزّع حسب حظّ كلّ منهم كما ورد في الآيات إذا لم تكن الوصية، فالآيات تدخل في صميم هذا المورث، رغم أنّها تنتقل من جيل إلى جيل إلى أن يرث الله الأرض كما نجد بعض الأحاديث تشير إلى نفس المعنى على وجه التقريب:

– "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً: كتاب الله وسنتي".

– "العلماء ورثة الأنبياء، وإنّ الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظّ وافر".

– "ورد في حديث لأبي هريرة قصة الرجل الذي قال للصحابة وهم في السوق: أنتم هنا وتراث محمد يقسّم في المسجد؟ فذهبوا فلم يجدوا إلا أناساً يتلون القرآن، فرجعوا يقولون: ما وجدنا تراثاً، وهل ترك محمد إلا هذا القرآن".[1] وفي هذه الأحداث وغيرها تشير إلى المنقول من كلام الله وحديث رسوله، المنقول من جيل لآخر، ولكن في معناه الدلالي، ويقصد به الدلالة اللغوية لا غير، ولهذا يبدو بعض التعجّل في الخلط بين ما هو وحي وسنّة وماهو كلام بشر، لاختلاف المرجعية، ومن

[1]- محمد عمارة، كيف نتعامل مع التراث، ص15.

هنا أكون من الرافضين لهذا الإدماج؛ فالوحي والسنّة أكبر من أشمل من أن يوضعا محلّ مقارنة، وهذا ما يراه الترهاء من الباحثين:

1. إنّ هذا شمولية التراث لنصّ الوحي هو مفهوم غربي استشراقي لا يفرق بين النصّ المعصوم وغيره من التراث.

2. إنّ هذا المفهوم يضع المعاصرة مقابل التراث.

3. إنّ مرجعية المصادر الإسلامية المخطوطة والمحفوظة لا تستند إلى العصْمة التي يستند إليها الكتاب والسنّة؛ فالعِصْمة تنحصر في المصدرين (الكتاب والسنة).

فيجعل هذا الفريق مساحة فاصلة بين النصّ (الوحي) والتراث، ولا يرون إطلاق لفظ التراث على الوحي إلا بالمعنى اللغوي المحدّد"[1]كما يرى الدكتور فهمي جدعان ضرورة إطلاق مصطلح التراث على ما له علاقة بإنتاج البشر، فُيخرج الوحي والحديث من مصطلح التراث، فالقرآن ليس من علوم القرآن، وعلم أصول الدين وأصول الدين وأصول الفقه ليس هو الدين نفسه، فيجب التمييز بين الوحي الإلهي والتراث البشري، لأنّ التمييز يحفظ للوحي قدسيته، ويتّرهه التتريه الذي يليق به وبذا نقول: إنّ إدماج الوحي في التراث أمر يرفضه الواقع، فنكون قد جمعنا بين ماهو وحي لا مجال لخطإ فيه، وبين ماهو غير وحين وهو قابل للخطإ والاختلاف، فاحتراماً لقدسية نصوص القرآن والسنة، لا يجب إقحامهما في حلبة المقارنة، ووضعهما في خانة التراث، وكذلك الفصل

[1]- شامل الشاهين "منهجية البحث عن التراث بين الواقع والطموح"، مجلة معهد الدراسات المصطلحة المغرب: 1996، جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس ظهر المهراز، عدد (نحو منهجية للتعامل مع التراث الإسلامي)، ص 126.

بين ما هو ثابت لا يتغّير ولا يعدّل، وما هو متحوّل، كما أنّ من التراث ما هو مأخوذ من الثقافات الأجنبية، فإذا صنّفنا القرآن والسنّة في التراث، فقد وضعناهما في تلك الثقافة التي نقلت غلى التراث الإسلامي.

ومع كلّ ما يقال فإنّه لا تخلو التعاريف من المقاربات والمعارضات؛ فنجد فريقاً من الباحثين يدمجون الوحي والسنّة في التراث العربية الإسلامي، لا يضيرهم أنّ التراث patrimoine يشمل الدين وغيره؛ فُيعامل كلّ القديم على أنّه موروث ثقافي قابل للنقد، وهؤلاء ربّما يكونون من المبهورين بالدراسات الاستشراقية التي تُعامل النصوص المقدّسة معاملة نصوص البشر، ولهم حججهم ومنهجهم الذي اعتمدوه، ويبقى هل اصابوا في هذا الدمج أم لا، فعند ذلك تكون مسألة أخرى وإذا سمحنا لأنفسنا أن نجري شبه مقارنة بين الوحي والسنة مع التراث العرب الإسلامي، لا شكّ أنّنا نجد الفروق كبيرة بين الأثرين، ويمكن التذكير ببعضها في هذه الترسيمة:

القرآن والسنة	التراث العربي
القرآن والسنة مكتوبان في أصلهما بالعربية، وترجما إلى كثير من اللغات.	التراث العربي الإسلامي القديم ليس مكتوباً كلّه بالعربية.
التراث الديني يرتبط بمصدر ديني حضاري سياسي ثقافي.	التراث العربي يرتبط بعنصر العصبية والحضارة والثقافة.

القرآن يقبل التفسير والتأويل ولا يقبل الإلغاء.	التراث العربي يقبل التفسير والتأويل والانتقاء والإلغاء.
القرآن إلهي وهو فوق التاريخ، فيتجاوز حدود المكان والزمان.	مجموع ما أنتجه الأقدمون من فكر، وما تركوه من أثر منقول قبل مائة عام من الزمان
القرآن والسنّة لا يستمران، فهما مدونتان مغلقتان	التراث لا ينقطع، وإنما يستمر مع الزمان بحكم ما يتراكم فيه من إنتاجات وإبداعات تضاف إلى الرصيد الموروث.
التجديد في القرآن والسنّة هو إعادة تفسير التراث طبقاً لحاجات العصر.	التجديد في التراث العربي يمك أن يتجاوز حدّ إعادة التفسير، وفق مقتضيات العصر إل الحذف أو الإهمال.
القرآن والسنة لا يقوّمان، ولا يحملان إلا الجيّد، ويمكن أن تتجدّد قراءتها وفق أنما العصر.	التراث يخضع للنقد والتقويم، فيه الغثّ وفيه الجيّد، يُحيا وقد يُهمل.
التراث الديني الإسلامي واحد وشامل لكّل مكان وزمان	التراث قد يكون إقليمياً: التراث العربي/التراث الأندلسي/التراث الفرنسي...

والخلاصة: لا يجب إقحام القرآن والسنّة في وجه المقارنة بينها وبين نصوص البشر، فهي أعلى من ذلك وأنزه، وهي فوق كلام البشر، لما لهما من فروق ظاهرة بينها وبين كلام البشر.

2 . كيف نقرأ التراث؟

في الحقيقة إنّ قراءة التراث تتمثّل في بعض النقاط التي يمكن ضمّها لبعضها في وحدة متناسقة تجيب عن السؤال المطروح: كيف نقرأ التراث؟ والقراءة المطلوبة في هذا المجال تعني:

2 .1 فهم التراث: إنّ تبليغ العربية تبليغاً جيداً، وإنقاذها يتوقّف على إعتاقها من حبسها وعزلتها وإطلاق سراحها بما يزيد من طاقتها، ويتجلّى هذا في تنشيط البحث العلمي والاجتهاد في مختلف علوم السلف، تحقيقاً ودراسة وتصنيفاً، وكذلك الوقوف عند الدراسات القديمة التي تناولت التراث للاستلهام والدراسة والاستفادة من أفكارها، وأقول: إنّنا لم نستطع فهم أو تجاوز إبداعات سلفنا الصالح، بل هناك من الدراسات المعاصرة حول التراث تراها مسخاً وتقزيماً، ومن هنا فإن الوعي والفهم أسس وثوابت سليمة قوية، وهذا الجانب يستدعي منا إعادة ما سبق نشره ناقصاً، ودراسته دراسة علمية، واستخلاص العِبَرَ والدروس التي تكمن في التراث لاستثمارها وإنّ سوء فهم التراث أو عدم فهمه يؤدّي بنا إلى النكوص والطعن في التراث الذي هو أعمق ممّا نتصوّر، فيكون العيب فينا، كما قال الشاعر:

وكم من عائب قولاً صحيحاَ وآفته من الفهم السقيم

وقال آخر:

نعيب زماننا والعيب فينا وليس لنا عيب سوانا

2.2 **تحيين التراث:** يجدر بنا الإشارة غلى ضرورة قراءة التراث على ضوء المناهج الحديثة بتحيينه وفق آليات القراءة الرشدية الصالحة؛ ونقصد بالقراءة الرشدية جعل التراث راشداً معاصراً مشذوباً منه ما لا يخدمنا، وهذا ما مرّت به الأمم المتقدّمة، ويكفينا مثلاً على ذلك "ماذا بقي من الديمكارتية في فرنسا، ومن تجزيئية لوك وهيوم في إنجلترا، فإنّنا سنجد شيئاً واحداً نعبّر عنه بالروح الديكارتية بالنسبة لفرنسا، والروح التجزيئية بالنسبة لإنجلترا، وذلك ما يشكّل خصوصية كلّ من[7] وإن الروح الرشدية يقبلها عصرنا، لأنّها تلتقي مع العقلانية والواقعية، والتعامل النقدي والجانب الروحي "ولا يتمّ التجديد بطريقة آلية، بإسقاط لفظ ووضع أي لفظ آخر محلّه، مرادفاً أو شبيهاً، بل بطريقة تلقائية صرفة يرجع فيها الشعور من اللفظ التقليدي غلى المعنى الأصلي الذي يقيّده، ثمّ يحاول التعبير من جديد عن هذا المعنى الأصلي بلفظ ينشأ من اللغة المتداولة، كما كان اللفظ التقليدي متداولاً شائعاً في العصر القديم"[8].

كما أنّ التحيين يشمل تطبيق المناهج المعاصرة لقراءة التراث قراءة حينية مكيّفية وفق الأنماط التي تتطلّبها الآليات الحديثة، شرط ألا يخلّ بأصالة التراث، فالتكييف المطلوب هي تلك السيرورة التي ينبغي اعتبارها خلال التدريس بمواءمة تعليم/تعلّم التراث وفق

---

[7] - محمد عابد الجابري: "نحن والتراث قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي"، ط5 المغرب: 1986، المركز الثقافي العربية بالدار البيضاء، ص52.

[8]- حسن حنفي: "التراث ولتجديد موقفنا من التراث القديم"، ط1 بيروت، 1992، المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص110.

حاجات المتعلّم ولهذا يحتاج التراث غلى قراءة معاصرة ووصله بنا، وهذا عن طريق الآليات الحديثة، ومراعاة الترشيد في تحريك اللغة التقليدية لمواكبة تلك الآليات، ومطلوب من الأستاذ في هذه النقطة العمل بالنفعية؛ وهو **اختيار النصوص** التي يسهل فهمها، والتي تتحدّث عمّا يَقْرُب من واقعنا، أو تلك النصوص التي تقبل التأويل في حركة دائبة كما يشمل التحيين **تحقيقاً في التراث** الذي يجب أن يتجسّد بشكله المنهجي وحسب ما أقرّته المنظمات العاملة على التحقيق، ولا يبقى خاضعاً لهوى الباحثين، فهناك قواعد أُقرّت من قبل معهد المخطوطات العربية نروم تجسيدها في كلّ عمل يعدّ(يحيّن) للتحقيق، وهي:

"1. أن يكون تحقيق التراث في أيد أمينة، قادرة عليه، فلا يُتطال إليه من لم تكتمل أداته اللغوية والفنية.

2. أن يبنى التحقيق على مناهج منظّمة وأولويات مرتّبة.

3. أن تخضع أعمال حديثي العهد بالتحقيق للتدقيق والمراجعة، على أن يتحمّل الأستاذ المراجع التبعة العلمية في ذلك كاملة.

4. أن تُصرف عناية خاصة إلى التراث العلمي استجابة للحاجة الحضارية الراهنة، وتحقيقاً للتوازن بين التراثين: العلمي والأدبي.

5. أن تنشأ في العواصم العربية فروع لمعهد المخطوطات العربية؛ يودع في كلّ فرع منها نسخ من الرقوق المصوّرة المحفوظة في مقرّ المعهد.

6. أقرّت اللجنة أن تكون للتحقيق ثلاثة مقاصد، وأن تراعى هذه المقاصد في وضع المنهج والتوصيات:

الأول: تقديم النصّ صحيحاً مطابقاً للأصول العلمية:

الثاني: توثيق النصّ نسبة ومادة.

الثالث: توضيح النصّ وضبطه"[9]

ولما وقع الحديث عن ضرورة مراعاة ضبط النصوص التراثية، يجدر بنا التنبيه إلى أنّ هذه العملية على أهمية عظيمة من الدرس التراثي، وهي عملية يختصّ بها المحقّق، وعليه فإنّ التعليق على النصّ مسؤولية تاريخية، وعلى المحقّق أن يكون في غاية الالتزام عند التعليق، ويجتهد أن تكون تعليقاته في جميع ما يصحّ أن يوضح أو يستدرك أو ينقد نافعة مفيدة، ولا يجب أن يسعى إلى توبلة النصّ بما لا يقبله، ويخرج بذلك إلى الإبهام، ويظلّ العمل المحقّق أقلّ مرتبة من النصّ في وعاء يحتويه، ونهيء له جوّه العلمي، ونكون متفاعلين معه بصدق، ونحتكم إلى منهجية البحث العلمي، ونكون متفاعلين معه بصدق، ونحتكم إلى منهجية البحث العلمي المبنية على الضوابط المنهجية المنفتحة على الثقافات العالمية.

[9]- معهد المخطوطات العربية بالكويت: "أسس تحقيق التراث العربية ومناهجه"، ط1 الكويت 1985، منشورات معهد المخطوطات العربية، ص13.

3.بأي منهج ندرُس/ندرِّس التراث؟

لا يجب أن نذهب بعيداً في فلسفة الأشياء، فهناك أشياء ضرورية في منهجية تدريس النصّ التراثي لا بدّ من مراعاتها، الخصوصية النصّ التراثي في ارتباطه مع خصوصية الفئة المستهدفة بمنهجية التدريس، واستحضار الأهداف السلوكية التي ترتكز على القيم في كلّ تخطيط منهجي، ومراعاة الزمان والمكان والوسائل الضرورية المتوفّرة، والتبسيط المنطقي لمحتوى المادة، والإعداد المسبق الذي يكرّس مبدأ التعلّم القبلي للمتلقّي، والتأكيد على تكوين المهارات والمقارنة والتحليل والتقويم والنقد والاكتشاف، وتوظيف الثقافة المرجعية التي تعتبر سداً منبعاً في تقوية التعامل مع النصوص التراثية، واستعمال الوسائل الحيّة أو الاسترشاد بها، مثل الصورَ البيانية والمطبوعات والوثائق، ومراعاة مختلف المتغّيرات والثوابت التي من شأنها أن تساعد على ترسيخ منهجية التدريس.

فمن منظور ديداكتيكي، أرى الاعتماد على التحليل بشكل حيّد؛ لأنّ التحليل يستعمل للقضاء على الطابع الكلّي الشامل، وهو أهمّ ما يميز الحضارة الإسلامية التي قامت على وحي كلّي شامل؛ ففي تراثنا القديم نماذج من التحليلات التي تكشف عن البناء الكلّي، بل إنّ التراث كلّه قائم على نظرية في التحليل؛ تحليل الوحي إلى مراحل، وتحليل العقائد إلى أصول، وتحليل أصول الفقه إلى أدلة وهذا ما يسمى في الوقت الحاضر **بالمناهج التحليلي**.

3 .1 المنهج التحليلي: يعمل المنهج على تفتيت الظاهرة الفكرية إلى عناصر متآلفة، ثّم يتمّ توضيحها وفهمها، وبعد تفتيتها يقوم بإعادتها لتكون الظاهرة عنصراً مساعداً

لبقية العناصر، وهذا يعطي النظرة الشاملة لإدراك الجوهر "العملية التي يتمّ بها تفكيك معطى كلّي (شيء، ظاهرة، إرسالية) بكيفية محسوسة أو ذهنية؛ تحوّله إلى عناصر وتبحث عن ترتيب لها وعلاقات بينها...وفي مجال الديداكتيك نجد التحليل يرمي إلى "تفكيك موضوع التعلّم إلى عناصر بسيطة وأساسية قصد تسهيل عملية التعلّم...ويفيد التحليل كذلك تمريناً من تمارين التعليم (وبالأخصّ في اللغة والرياضيات والفيزياء وغيرها...[10]") وهذا المنهج لا يغّيب جانب التقويم الذي يتولّى استكشاف الآليات التي تأصّلت وتفرّعت بها مضامين التراث، كما يتولّى الانفتاح على الطرائق التربوية التي يمكنها أن تسهّل مهمّة التفاعل مع النصّ التراثي، بما فيها الطرائق اللسانية والحوارية والمقاربات التواصلية التي تهتمّ بتقنيات الحوار فيدعو المنهج/الطريقة التحليلية Méthode analytique إلى التدرّج في معالجة الموضوع انطلاقاً من معطيات كلية للوصول إلى معارف جزئية، وتكثيف الحوار بين الطالب والأستاذ؛ للوصول إلى خلاصة استقرائية من خلال الشروح التي تقدّم.

ويمكن توضيح معالم هذا المنهج فيما يلي:

1. تحديد الموضوع (مثلاً دراسة في ألفية ابن مالك)
2. انتقاء الموضوع (باب الابتداء)
3. التركيز على الأبيات التي تتناول (باب الابتدائ).

[10]-ع/ عبد اللطيف الفاربي وآخرون: "معجم علوم التربية مصطلحات البيداغوجيا والديداكتيك"، 1 ط1 المغرب:1993، دار الخطابي للطباعة والنشر، ص17.

4. قراءة الأبيات قراءة استيعابية[11].
5. ضبط الأبيات: وفيها يتمّ التعليق والشرح وإيراد الشواهد...
6. الخلاصة: تثبيت القاعدة

وهذا المنهج يتطلّب ثلاثة مبادئ هي:

1. المفهم الجيّد للدرس من قبل المدرس.
2. التركيز الجيّد من قبل الطالب.
3. تفاعل الطرفين.

وهذه الطريقة أو المنهج تجمع بين **الطريقة التقليدية**؛ التي تمثّل مبادئها في: الحفظ والاعتماد على المدرس؛ وهو الذي ترشّح منه المعلومات، والطالب يستقبل فقط، **والطريقة التحليلية** التي تعتمد معطيات كلية (من المركّب إلى البسيط) وتسمى أيضاً

11- يقترح محمد حماسة عبد اللطيف، أن نقرأ النصّ القديم بهذا المنهج" توثيق النصّ، وتحقيق نسبته إلى قائله: هل قاله صاحبه مباشرة، فجاء في بعض كتبه، أو نقله عند أحد تلامذته.
2 .وضع النصّ في سياقه العام الذي يرد فيه، وندى مناسبة النصّ لهذا السياق العام، ويوجّهه الوجهه الصحيحة.
3. وضع النصّ في سياقه الخاص؛ كأن ينظر إلى الفصل الخاص الوارد فيه، فإذا نظرنا إلى الكتاب على أنّه يمثّل السياق العام، فإنّ الفصل بوضعه في داخل الكتاب يمثّل السياق الخاص.
4. النظر في النصّ نفسه من داخله، وتبيّن مدى مواءمته للسياق الخاص والعام، والنظر في الأفكار التي يحتوي عليها، وترتيب هذه الأفكار.
5.عرض الأفكار الواردة في النصّ من أفكاره صاحبه وآرائه في الكتاب الوارد فيه وفي غيره.
6 موقف معاصري هذا النصّ من أفكاره، وموقف القريبين منه والمهتمّين بمجالة ع/كيف نقرأ النصّ القديم "مجلة تراثيات، القاهرة: 2005، تصدر عن مركز تحقيق التراث، دار الكتب والوثائق القديمة، ص 10.

بطريقة الجمل أو الوحدات المعنوية أو الطريقة الكلية وهذه الطريقة بدورها تستعمل في بعض المقامات أسلوب التبسيط، والتحليل، والتدّرج، واعتماد التقويم ومن هنا فنرى المدرس هو العمدة ولبّ العملية في فهم النصوص القديمة، وعليه أن يتسلّح بآليات الأصالة ومفاتيح المعاصرة، وبذا فإنّ هذا المنهج لا يغّيب أطراف العملية التعليمية ودورها في مدارسة النصّ التراثي؛ بدءا من الأستاذ الذي يخصّه في الاستعداد النفسي والتربوي للتعامل مع محيط العلمية التعليمية، إلى تحديد طبيعة النصّ بحسب الهدف من الدرس، ومراعاة مستوى الطلبة ومؤهّلاتهم، واختيار مصدر النصّ، وما يجري عليه من توثيق، إلى الطالب الذي له المهام التالية:

. التحضير المادي والمعنوي لمدارسة النصّ.

. متابعة الخطوات العلمية للأستاذ.

. الحضور الذهني

. الاستجابة الفعلية أثناء الأسئلة والحوار.

الخاتمـــة

إنّ التراث العربي قوّة دافعة، من وظيفته في الحياة العربية الحاضرة أن يشيع في النفس الثقة بالذات، وأن يبعث فيها كلّ قدراتها الكامنة، وأن يستجيش قواها الخيّرة لمواكبة الحضارة والمشاركة في ريادتها والسبق فيها، وأمام هذا الزخم العجيب لا ننكر بأنّ هناك قصوراً في فقه الآليات ونتج ذلك ازدواجية المعايير، والانزلاق إلى المطابقة والمماثلة التي كانت آفتنا، وهذا بسبب التديّ العقلي لدى بعض الباحثين، وإلى سوء التصرّف في نصوص المماثلة، فلم نبنِ خصوصيتنا على ماهو منّا وإلينا ومن هنا أدعو إلى **توظيف**

المنهج الذي يبعدنا عن القبول المطلق والرفض المطلق والانتقاء العشوائي؛ بالتعامل التكاملي في كلّ جوانبه الفكرية، وبالتعامل الإحيائي، وبخدمته نشراً وتحقيقاً، وتقريباً، واختصاراً، وخدمة، وفهرسة، وتكشيفاً، وإلى النظرة التكاملية إلى التراث والاشتغال به وفيه، من خلال آليات الداخل المعرفي، وإلى ضرورة القطيعة مع الفهم التراثي للتراث؛ لا سيّما وأنّ المرحلة قد أخذت تتطرّق غلى التقويم الصحيح والأصيل والنظرة الشمولية، وهذا ما يراه طه عبد الرحمن بأنّ التراث يجب أن يقرأ قراءة شمولية لا جزئية تجزيئية ويقترح:

"1. التخلّص من الأحكام المسبقة أو الجاهزة أو المسيّبة التي اعتاد جمهور المشتغلين به كلّما عنّ لهم اتّخاذ موقف تمليه عليهم أغراض غير طلب الظفر بالحقيقة.

2.تحصيل معرفة شاملة بمناهج المتقدمين من علماء الإسلام ومفكريهم في مختلف العلوم، مع تحصيل معرفة كافية بالمناهج الحديثة تمكّن من القدرة على تجاوز طور تقليد المناهج واقتباس النظريات إلى طور الاجتهاد في اصطناع المناهج ووضع النظريات.

3.استخدام أنسب الوسائل في وصف كلّ قسم من أقسام التراث سواء أتواتر تعظيم قدره عند الباحثين، أم لم يتواتر حتى تكون الأحكام التي نصدرها في حقّ التراث حاصلة بتصفّح أقصى ما يمكن من جزئياته المختلفة[12]".

وهكذا فحاجتنا قويّة إلى التراث لتحقيق الأمن الثقافي والنفسي، وإلى صياغة منهج استقرائي يجمع بين دقّة المحدثين وصناعة الأصوليين وحذق المفسّرين، وهو الذي يخوّلنا إمكانية حماية تراثنا من كلّ دخيل، فواجب الأستاذ في حسن اختيار النصّ القديم، والعمل على تبليغه وتيسيره والتحبيب فيه؛ لأنّه لا سبيل إلى امتلاك الأصل دون قراءة التراث، وواجب الطالب في الأعداد ومدارسة النصّ وامتلاك آليات ذلك، ولا يأنف

[12]- تحديد المنهج في تقويم التراث، ط2، المغرب: دت، المركز الثقافي العربي بالدار البيضاء، ص20.

عن مدارسة الكتب الصفراء؛ ففيها الجيّد عندما يحسن الانتقاء وأما القراءة فلا يجب أن تكون نفعية وآنية ومباشرة، وهنا تضيع الجهود من مدارسة التراث، فأين الجانب الأدبي الذي يعمل على التزوّد بآليات اللغة، وأين المحاكاة اللغوية أو البلاغة التي تربّي الدربة على الفصاحة وامتلاك آليات اللغة.